

سر المعلم كورني

للطبيب الفرنسي ألفونس دوديه

بقلم الأديب عبد الغني العطري

تعريف بالقصة

يمكننا أن نقول دون غلو أو مبالغة إن كتاب رسائل من طاحونتي لدوديه هو أحسن ما أنتجه على الإطلاق . واشتمع مافله شارل سارولافي مقدمة هذا الكتاب

« إن فن القصة فن فرانس ، وليس ثمة منطقة في فرنه أنتجت قصاصين مجيدين كما أنتجه بلدة القروبادورين ، وليس بين القصاصين البروفانسين شبيه لألفونس دوديه ؛ وليس بين أقاصيص دوديه ما يفوق رسائل من طاحونتي »

وأنا أقول إنه ليس بين أقاصيص رسائل من طاحونتي أحسن ولا أروع من : « مزمة السيد سوفان » و « المجوزان » و « نائب الوالي في القرية » و « سر المعلم كورني » ...

فرانسيت مامال نافخ في الزمار مجوز ، كان يأتي لقضاء السهرة عندي من آن لآخر . وبينما كان ذات مساء يحتمس أكواب الخمر المتعة قص على مأساة قروية قصيرة ، حدثت منذ عشرين عاماً وكانت طاحونتي من اللواتي شهدنها

وقصة الرجل الساذج هذا أثرت في ناثيراً بليناً وسأحاول ما استطعت أن أقصها عليكم كما سمعتها

تصوروا يا قرائي الأعزاء أنكم جالسون قبالة إبريق من الخمر المطر ، وأن الذي يحدثكم هو هذا المجوز النافخ في مزماره :

إن بلدتنا يا سيدي لم تكن مجدية أبداً كما هي اليوم . لقد كانت تقوم فيما مضى بتجارة واسعة في الطحانة ؛ ومن مسافة عشرة فراسخ كان سواقو الخير يأتوننا بمحنتهم لنطحها لهم . وكانت الهضاب المحيطة بالقرية مغطاة بمطاحن الهواء ،

وحينما تلفت المرء بمنته أو يسرة لم يكن يرى إلا أجنحة تدور باتجاه الريح الشمالية مغطية أشجار الصنوبر ، وجوعاً كثيرة من صفار الخير محملة بأكياس الحنطة تصعد بها نارة وتهبط أخرى . وهكذا دواليك طيلة الطريق ، وكان من المتع سماع صوت السياط من عمل مدى

الأسبوع ، وطققة النسيم ، وأصوات مساعدي أصحاب المطاحن وهم يحثون حيواناتهم على الإسراع . وفي أيام الأحاد كنا نذهب إلى المطاحن وحداناً وجماعات ، وهناك في تلك المرتفعات كان الطحانون يرشقون الخمر المطرة . أما أزواج أصحاب المطاحن فقد كن جيلات فانتات كالأول كن أزواجاً للوك ، زينهن مناديل أعناقهن المصنوعة من المخرم^(١) وصلبانهن الذهبية . أما أنا فقد كنت آتي بمزماري ويظنون هم يرقصون الفرنندول^(٢)

حتى يقبل الليل بمحلكته . وهذه الطواحين أراها ؟ لقد كانت مصدر غنى وسعادة بلدتنا

ولكن أسس - لسوء الطالع - بعض فرنسي باریس مطحنة تدور بواسطة البخار على طريق (تاراسكون)

(١) الدنبل

(٢) رقصة « بروفنسية » وبها يمسك الراقصون بعضهم

بأيدي بعض ويرقصون على خط مستقيم

لهم يريدون أن يسموا الناس بطحين مطاحن البخار
وكان يقول :

— حذار أن تذهبوا إليهم، إن أولئك اللصوص
يريدون أن يسموا الخبز فيستعينوا على ذلك بالبخار
الذي هو من عمل الشيطان ! بينما أنا أستعين بالرياح
— والرياح الشمالية غصب — التي هي من أنفاس
الخالق عز وجل .

ولقد سمع إذ ذاك كثيراً من الكلام في مديح
مطاحن الريح وإطرائها ؛ ولكن إلى جانب ذلك
لم يعمل أحد بنصحته .

ثم توارى كورني عن الأنظار بقوة إرادته ،
غاضباً ، حاتقاً ، وظل وحده في طاحوته كحيوان
متوحش ؛ ولم يشأ أن يكون قربه أحد ، حتى
ولا حفيده « فيفيت » البالغة من العمر خمسة عشر
ربيعاً ، والتي منذ فقدت والديها لم يبق لها من قريب
سوى هذا الجد .

ولقد اضطرت هذه الصغيرة المسكينة إلى كسب
القوت بكد اليدين ، وعرق الجبين ، فكانت تكثر
تارة لتسوق الخبز المحملة ، ولتقودها في الطريق ؛
وتارة للعمل في أيام الحصاد أو لغيرها من الأعمال .
ولقد كان جدها مولماً بها كل الولع عجباً لها
كل الحب ؛ وعند ما يلج به الشوق إليها والحنين ،
كان يقطع المسافات البعيدة ، في حر الظهيرة ، مشياً
على الأقدام ، باحثاً عنها خلف الأحمال ، حيث تشتغل .
وعند ما يكون إلى جانبها ، كان يحملها في أحضانه
— وقد يقضى الساعات الطويلة كذلك — وهو
يذرف الدموع

وكان سكان البلدة يحسبون أن هذا المعجوز
لم يدفع بحفيده إلى تيار العمل ، ومترك الحياة ،
إلا بخلاً منه وتقتيراً

والناس راغبون في الجديد ، ميالون إليه لأنهم
يجدون فيه لغة ، وفي نفوسهم إليه رغبة ، وهكذا
اعتاد الناس منذ ذاك الحين إرسال برّهم إلى مطاحن
البخار

أما مطاحن الهواء المسكينة فقد ظلت بلا عمل ،
ولقد حاولت بمدد المقاومة ففاضت وصمدت ؛
ولكن الغلبة كانت للبخار . ثم أقلمت واضطرت
كلها إلى إغلاق أبوابها الواحدة بعد الأخرى ؛
فلم يكن يرى بعد ذلك تلك الخبز الصغيرة تأن وتروح ،
وأزواج أصحاب مطاحن الهواء الجليات بمن صلبانهم
الذهبية ... فلا يخرج عنب مطر ، ولا رقصات
الفرندول الجميلة . أما ريح الشمال فقد هبت كثيراً
ولكن ... أجنحة تلك المطاحن ظلت جامدة
لا تتحرك ولا تدور ...

ثم جاء يوم أزالته مديرية البلدة كل هاتيك
الخرائب من أصلها ، وزرعت مكانها الكروم
وأشجار الزيتون

إلا أنه بالرغم من كل ما حدث ظلت واحدة
في وسط تلك الخرائب الزائلة ، صمدت لأحداث
الزمان ، وتقلبات الدهر ، ظلت أجنحتها تدور بهمة
ونشاط على ربوتها ؛ وذلك رغم أنف أصحاب مطاحن
البخار . كانت هذه مطحنة المعلم كورني ، وهي نفسها
التي نقض بها سهرتنا الآن

كان المعلم كورني طحاناً معجوزاً قضى ستين عاماً
من حياته بين الطحين . ولقد صيره إنشاء مطاحن
البخار مجنوناً أو كالمجنون . ولقد شوهد مدة ثمانية
أيام ركض في القرية داعياً الناس إليه ، صائحاً بهم
بكل ما أوتي من قوة حنجرة ، وارتفاع صوت :

أما أن بطاً المرء عتبة طاحونه فهذا أمر غير معقول ولا يجب التفكير فيه أبداً ، حتى أن حفيده فيفيت نفسها لم تطأها قدماها قط .

و كفت إذا ما صهرت بها وجدت بابها مغلقاً وأجنحتها الذليظة تدور ، دون ما توقف أو تمهل ، و حماراً كبيراً يطف شيئاً من المشب ، و سنوراً كبيراً ، ولكنه هزيل ونحيل ، راح يمرض جسمه لأشعة الشمس ، وهو جالس على حاشية النافذة ، و يرسل من ناظريه نظرات خبيثة ماكرة .

كل هذا مما يشعرك بالتموض في حياة المعلم كورنى ويستثير في الناس الفضول ، وحب الاستطلاع ؛ و كل امرئ كان يتكهن ويعمل فكره لإظهار هذا السر واكتشافه ، وكان الشائع بين الجميع أن في هذه المطحنة أكياساً من الدنانير ، أكثر مما فيها من أكياس الطحين .

ولقد كشف كثر الغداة وصر العشى ، اللثام عن كل ما خفي من هذا السر ، وهاكم كيف كان ذلك : بينما كنت ذات يوم أسلى نفسى بالنفخ في مزمارى ، شمرت بأن ابنى البكر و « فيفيت » الغناة قد نحابا وصارا عشيقين . والحق يقال أنى لم أغضب لهذا الحادث ؛ لأن اسم كورنى كان لا يزال شريفاً ومحترماً عندنا ، ومن ثم هذه « المصفورة ! » الجيلة « فيفيت » كان يلذ لي أن أتصورها وهي تنهادى بطلعتها البهية في داري

وبما أن الفرصة كانت تسنح لما شقينا بالاختلاء أحياناً فقد خشيت أن يحدث بينهما ما لا نحمد منبته ! لذا آليت على نفسى أن أنهى الأمر حالاً . فذهبت إلى الطاحون كي أحدث إلى الرجل المعجوز في هذا الأمر

وما كان هذا الظن ليشرفه ، كما لم يكن يشرفه القذف بحفيده من مزرعة إلى أخرى ؛ معرضة خلال ذلك إلى فظاظة البعض ، وإلى شقاء الطفولة وبؤسها وكان من الماركة على من كانت له شهرة المعلم كورنى وصيته ، والذي ظل حتى ذاك الوقت محترم الجانب موفور الكرامة ؛ أن يقطع الطرقات الطويلة حافى القدمين ممزق القلنسوة والثياب كنورى أصيل وعند ما كنا نراه في أيام الآحاد يحضر القديس في حالته الرثة تلك كان الحجل يساورنا منه نحن الكهول ، ولقد كان السكين يحس ذلك جيداً ، إذ لم يكن يجرؤ على الجلوس على القاعد المصنوعة ، بل كان دوماً يظل في أقصى الكنيسة بالقرب من الجرن المقدس مع الفقراء والساكنين

ولقد كان في حياة كورنى أشياء غير مجلوة ، منها أن أحداً لم يمد يرس إلى برء ليطحنه ، وبالرغم من ذلك فقد ظلت أجنحة طاحونه تدور أبداً كما كانت قبلاً . وفي المساء كان القرويون يلقونه في الطريق ، وهو يدفع أمامه حماره المحمل بأكياس الطحين الكبيرة ، فيلقون عليه تحية المساء ويسألونه عن طاحونه :

— كيف حال المطحنة ، أما تزال بخير ؟

فيجيبهم المعجوز بجد وحزم :

— بخير دائماً يا أولادى ! حمداً لله وشكراً

على أن العمل لا ينقصنا

فإذا ما سُئل عن يأتية بقمحه ، زوى ما بين حاجبيه ووضع سبافته بشكل عمودى أمام شفتيه اللتين استدارتا وأجاب بثبات وعزم :

— مه . . . إلى أعمل للتصدير إلى الخارج

ولم يكن في المستطاع استدراجه للتصريح بأكثر

من هذا .

حتى ولا حبة واحدة ، ولا أثر لنبار الطحين على الجدران ، ولا على نسيج المنكبوت الكثيف . وعدا ذلك لم يكن المرء ليشمع برائحة البُرِّ الزكية الحارة التي تنتشر منه عقب طحنه والتي تنبت عادة في كافة المطاحن . وكان محور الرحي مغطى بطبقة من الغبار الكثيف ، والسنور الكبير الهزيل يرقد في الأعلى

أما القسم الأسفل فقد كانت تبدو عليه أيضاً أمارات البؤس والهجر : سريراً كل الدهر عليه وشرب ، وبضع خرق ومزق ، وكسرة خبز موضوعة على إحدى درجات السلم ؛ وأخيراً في أحد الأركان ثلاثة أو أربعة أكياس مثقوبة من جوانبها يتساقط منها المضرمة^(١) وشيء من قطع الجبس

هذا هو سر كورنى الكتيب ، الذي حرص على إخفائه ، وكانت هذه الفضلات من جبس الجدران الخربة هي التي « يترها » صباح مساء في أكياس ضخمة ليصون بها سممة طاحونته من التلوث وشرفها من الدنس والعار فيوم للناس بذلك أن رحاه تعمل وتشتغل .

يا للرحى المسكينة ! يا لكورنى البائس المسكين إن أصحاب مطاحن البخار قد نزعوا من نفسك منذ زمن بعيد آخر أمل لك في العمل . إن أجنته رحاه تدور دائماً ، ولكن الرحي كانت تدور على ... على نفسها !

ولقد عاد إلى الماشقان والدموع تترقق في مآقيهما ، فقصا على ما رأياه ، ولقد شعرت إذ ذاك أن قلبي يكاد ينفطر أسى ولوعة لمصاب هذا المعجوز وفي الحال أسرع إلى الجيران فقصت عليهم

(١) تراب يشبه الجبس

بأله من معجوز ساحر ترى بآية صورة استقبلي؟ إنه من غير الممكن أن بكره على فتح باب طاحونته لأحد ... لقد أخبرته من شق القفل بالدافع الهام الذي حداًني لمقابلته والحضور إليه . وبينما أنا أفعل ذلك وألح عليه بمقابلتي كان السنور الخبيث الهزيل يموء فوق رأسى كشيطان رجيم

ولم يمكّنني المعجوز من إتمام كلامي بل صاح في وجهي بصورة تخلو من الأدب والدوق ، وأمرني أن أعود إلى زمزاري ، قال إنى إذا كنت مجلان إلى هذا الحد في تزويج ابني فما على سوى أن أبحث له عن فتاة من بنات أصحاب مطاحن البخار

تقوا أن الدم قد قار في عمروق لسباع كلات شائنة كهذه ، ولكنى كتمت غيظي وثورة غضبي ورزقت ساعتئذ عقلاً واسماً وحلماً كثيراً ، وترك هذا المعجوز المتوء في طاحونته وعدت أدراجي لأروى للماشقين الصغيرين خيبة أملى ومسمائى . أما هذان الجملان الوديعان فلم يصدقاني وطلبوا إلى بلطف وظرف أن أسمح لهما بالذهاب معاً إلى الطاحون ليتحدنا إلى الجد المعجوز في هذا الشأن . فلم أقو على الرفض ولم أجد له سبباً

ها إن الماشقين الصغيرين قد ذهبا ، وبينما كان يسلكان سبيلهما السوى إلى الطاحون كان المعلم كورنى ينادىها لأمر

لقد وجدا الباب محكم الإغلاق والقفل ، غير أن المعجوز المسكين عند خروجه نسي السلم خارج الطاحون . وخطر للماشقين إذ ذاك اغتنام الفرصة النادرة السنوح بأن يدخلوا من النافذة ويكحلا عيونهما بالنظر إلى هذه الطاحون الدائمة الصيت شيء لا ند له ولا منيل ... غرفة الرحي كانت فارغة ... من كل شيء ، وليس فيها أكياس قمع ،

يا الهى ! ... إنه قمح حقاً قمح جيد ! دعونى
بربكم أمتع ناظرى برؤيته جيداً
ثم مال إلينا بوجهه وقال :
— لقد كنت واثقاً من أنكم ستعودون إلى ،
إن أصحاب مطاحن البخار لصوص بأجمعهم
وأردنا أن نحمله على الذهاب معنا إلى القرية
للاحتفال به ، ولكنه أبى ذلك وقال :

— كلا يا أولادى لا أريد ... يجب على أن
« أطمع » مطحنتى قبل كل شيء ، أذكروا أنه مر
عليها أمد طويل لم تضع خلاله شيئاً تحت « ضرسها »
وأخذت الدموع تترقق فى مآقينا جميعاً لم رأى
هذا المعجوز السكين الذى كان يعيل بمئة ويسرة
وهو يفرغ أكياس الحنطة مما فيها ويراقب الرحي
وهى تدور كل ذلك بينما كان الحب ينسحق ، وغبار
الطحين الناعم يتطاير فيملاً جو المطحنة ويصل إلى
سقفها .

ولعل من الإنصاف لأنفسنا أن أقول : إنه
منذ ذاك اليوم لم ندع الشغل ينقص هذا المعجوز أبداً
ثم ... مات المعلم كورنى ذات صباح وأمسكت
أجنحة آخر مطحنة للريح عن الدوران ، ولكن ...
إلى الأبد ... إلى النهاية ... فى هذه المرة . لقد مات
كورنى ولم يخلفه أحد . وماذا تريد يا سيدى ؟
إن لكل شيء نهاية ، وإن كل حال مصيره إلى الزوال
ولا مفر ، ولكن يجب أن نعتقد أن زمن مطاحن
الهواء قد انقضى كما انقضت أيام العربات الكبيرة ،
وأيام المجالس النيابية ، وأيام السترات ذات الأزهار
الكبيرة (١)

عبد الفتى العطرى

(دمشق)

الخبر بإيجاز ، وعزمنا عزماً أكيداً على إرسال كل
ما فى بيوتنا من حنطة إلى طاحون المعلم كورنى
بأسرع وقت . ولقد عزمنا ونفذنا عزمنا لساعته ،
فقامت القرية بأسرها تسمى إلى رابية المعلم كورنى
وهى تسوق أمامها الحير المحملة بالحنطة ... الحنطة
الحقيقية !

وهناك كان باب المطحنة مفتوحاً على مصراعيه
وأمام الباب كان كورنى جالساً على كيس جبس ،
وهو ينتحب ويذرف الدمع السخين ، ورأسه بين يديه .
لقد شعر السكين بأن أحداً دخل مطحنته خلال
غيبته واكتشف سره الحزين . وكان يقول :
— يالى من شقى ناعس ! لم يبق أمامى الآن
سوى أن أموت ، لقد فضح سرى ، واكتشف
أمرى ، وتلوث شرف مطحنتى

ثم شفق شهقة كادت نفسه تنصدع لهولها ،
وأخذ ينادى طاحونه بأعذب الأسماء وأرقها ويناجيها
كأنها إنسان ينطق
وفى هذه الآونة وصلت الحير التى كانت تتقدمنا
إليه . وأخذنا جميعاً نصيح به ونناديه بكل ما أوتينا
من قوة حنجرة وارتفاع صوت ، كما كنا نفعل
فى أيام مطاحن الهواء :

— أى صاحب الطاحون ! أى معلم كورنى !
وها هى ذى الأكياس الضخمة تمكدس ،
بعضها فوق بعض أمام باب المطحنة ، والقمح
الأصهب الجيد يتناثر على الأرض من كل ناحية
وصوب .

وفتح المعلم كورنى إذ ذاك عينيه الكبيرتين
وتناول فى راحة يده العارية الأشاجع (٢) شيئاً
من القمح وقال وقد امتزج ضحكه بدموعه :

(١) أصول الأصابع

(٢) Jaquette à grande fleur ضرب من الثياب

كان الرجال يرتدونها فى غلالة فى الزمن العابر

(طبع بمطبعة الرسالة لإشاعة البدر — هاجره)